السّلطة والآخر في الرواية الجزائرية

د. بن جماعي أمينة

جامعة تلمسان

ملخص المداخلة

تحاول هذه المداخلة، أن تكشف علاقة السلطة بالآخر، في الرواية الجزائرية من خلال الإشارة إلى بعض التوجهات السلوكية، والانماط التعاملية العدائية، التي تسوغ لاهانة الآخر والاعتداء عليه، بل وإبادته. من خلال مساءلة بعض النصوص، التي تظهر فيها هذه الفكرة بكثير من الجلاء، فقد سعت رواية طومبيزا لرشيد ميموني، إلى تعرية خوف الآخر، وهي تدين في ذات الآن، العنف في أشكاله البسيطة والمعقدة. كما أثارت رواية نوار اللوز لواسيني الاعرج، ذات المضمون وهي تستند على الظرف التاريخي، والحدث الماضي، المستمر في الحاضر. أما نجمة الساحل فإنها تعرض لسطة مريضة، تعيش لأجل إهانة الآخر وتهميشه. وفي زمن النمرود يكون الوصول إلى السلطة، والتشبث بها، غاية وجبت تحقيقها، حتى وإن كان الثمن إنهاء الآخر.

الكلمات المفتاحية : الرواية، الرواية الجزائرية، طومبيزا، نوار اللوز، نجمة الساحل، زمن النمرود، علاقة، السلطة، الآخر.

Summary

This paper tries to reveal the relationship between the Authority and the other in the Algerian novel by referring to some of the behavioral trends, transactional hostile patterns, to justify the insult, the violation, and even extermination to and on the other. Throughout the analysis of some texts, in which this idea is clearly manifested. In fact such novel like that of Rachid Mimouni's Tombéza in which he sought to expose the fear of the other and condemned violence in its simple and complex forms. The same idea is also raised in another novel that of Ouassini Laredj Nouar Alaouze which is based on historical circumstances, and the past events that continue in the present. Nadjmat Al Sahel also portrays the sickness of the authority, living for insulting and marginalizing the other. On the hand Zaman Anamroud the access to power and stick to it becomes an end to reach it even if the price is to take life of the other.

Key words: the novel, the Algerian novel, Tombéza, Nouar Alaouze, Nadjmat Al Sahel, Zaman Anamroud , relationship, Authority , the other.

النّصّ السّردي، بقدر ما يتحدّث عن الإنسان، فهو يتحدّث إليه أيضا، في خطابات الاستفهام الّتي تُلحّ على الوصول إلى منطقة الإجابات، حيث يسكن نبض الحياة، الّذي يحكي ظلّ الرّاهن في "تجربة عميقة تتوافق فيها عمليّتي التّنقيب والاستنتاج"[1]، فيتحوّل فيها الكنه الإنساني وما يستفزّه من طوارئ خارجية إلى مركز للاطّلاع على حقيقة الحياة، وما تُسرّه من غوامض وتصادميّات متعدِّدة المنابع، ممّا يجعل النّصّ السّردي شبيها برحلة قد تطول وقد تقصر، ولكن "العودة منها يُفترض أن تكون هادئة"[2]، بعد أن يكون مبتغى تقريب الحيّز الخيالي من الحيّز الواقعي قد تحقّق، وأضحى التّفريق بينهما أمرا عسيرا.

من هذه النّقطة ينطلق الفنّ السّردي ليُعرّي ممارسات من "السّلوك والأحاسيس والأمزجة المشتركة بين البشر والمستمرّة من جيل إلى آخر"[3]، صانعة في تطوّريّة تصاعدية، ملامح السّلطة بكبريائها العنيف وجاهها النّهم.

هذه السّلطة الّتي ستختزلها سرديّة طومبيزا[4] في شخصيّة أعلنت عصيانها على الرّاهن برفضها للآخر، الّذي باتت علاقتها به مختلّة حتّى التّخريب، وعدائيّة حدّ الانتقام. انتقام شرعته ضدّه متى أُتيحت لها السّانحة ووافقتها اللّحظة. فتكون الإساءة الّتي تتعدّد وتتنوّع، والقهر الآسر الكاسر.

وبقدر ما يكون شرّها عنيفا مهلكا لهذا الآخر، يكون رضاها على نفسها وابتهاجها بما حقّقت، وهي لا تُظهر إزاء ما تقترفه أدنى إحساس "بالنّدم أو اللّوم أو تأنيب الضّمير"[5]. هذا اللّون من السّلطة يتكشّف وطومبيزا تتبع تحرّكات محافظ الشّرطة.

(باتول) الّذي لا يُعلم إلاّ بهذا الاسم في السّرديّة كلّها، واليقين في ذلك أنّه لقب استحدثه له الآخر وألصقه به حينما أمعن في ظلمه وتحقيره والكيد له باسم القبّعة السّلطويّة، ليحمله على الاعتراف به والإذعان له، في هدوء مذلّ، ودونما صخب أو تذمّر.

وهكذا استوعب باتول معنى السّلطة واستكنه مدلولاتها ليمنح نفسه الحقّ بعد ذلك فيجعل الآخر حيّزا استفراغيّا لكلّ ما يعتمل في دخيلته من تناقضات عاطفيّة ولا منطقيّات فكريّة "يُهينهم يُعنّفهم يلطمهم يُدحرجهم يُوبّخهم دون سبب، بل لمجرّد أنّهم وجدوا أنفسهم أمامه وجها لوجه، فلابدّ أن يفرض عليهم سلطته كمحافظ شرطة في هذه المدينة، ويُعبّر عن كراهيته لهؤلاء النّاس الّذين ليس بوسعهم إلاّ أن يُطأطئوا رؤوسهم أمامه، يُشبعهم ركلا، ينهال عليهم بوابل الشّتائم البذيئة، حين يمرّ يلتصقون بالجدران أو يرجعون القهقرى حتّى لا يُلاقوه"[6].

باتول السّلطة يُشبه فيما يرتكبه، ذاك الوحش الّذي تُظهره الأسطورة وهو يتسلّط على المكان وأهله، فلا يبرحه إلاّ وقد أجهز على الأخضر واليابس فيه.

---

[1] Roland Barthes, Essais critiques, Editions du Seuil, 1964, p.42.
[2] Tzvetan Todorov, Théorie de la littérature, Editions du Seuil, 1965, p.203.
[3] Water Allen, The English novel auglettere, Pinguin, 1991, p.44.
[4] رشيد ميموني، لافوميك، 1989. (لقد وزع هذا العمل على أكثر من مترجم ولكن عند ظهور الطبعة لم تشر لأي منهم)
[5] عبد الله محمد العيسوي، موسوعة علم النفس الحديث، علم نفس الشواذ والصحة النفسية، ج5، دار راتب الجامعية، بيروت، 2001-2002، ص.389.
[6] طومبيزا، ص.10.

ممّا يشي بنفسيّة مفخّخة تخاف من انفجار ألغامها فيها، فتُحوّلها باتّجاه الآخر، تؤدِّبه كما القاصر، تُعاقبه إلى درجة التّعذيب، دونما خطأ يُعلَمُ فيُذكر، يكفي أن يتواجد هذا الآخر في مساحتها ليُصبح مجرما وجبت إدانته.

يبدو أنّ باتول السّلطة يستمدّ قوّته من ذاك الآخر، المتوجّس منه خيفة، العاجز عن رفع رأسه والنّظر إليه ومواجهته، اللاّئذ بالفرار للالتصاق بأقرب جدار كالحشرة، ذاك الآخر الذي يتحوّل نجسا قذرا وباتول السّلطة يُمطره بسيل من عبارات الفحش ومعاني الصّفاقة، فينجح ذاك الآخر وحده في أن يجعل باتول السّلطة مطمئنّا بالعيش في أوج نشوته السّلطويّة الّتي تُملِّكه الزّمان والمكان، وتُملي عليه ضرب الحميميّات مادامت للآخر، فيقتحمه مباغتا لأجل أن "يتلذّذ هذا الصّمت الّذي خيّم فجأة على القاعة الّتي كانت غاصّة، ضجيجها يفوق ضجيج مدجنة، الجميع يُدركون من هم يُواجهون، فتنحني الرّؤوس، حينئذ ينتفخ صدره مزهوّا بهذا الخضوع"[1].

ها هو باتول السّلطة ما أن يظهر ويتخطّى عتبة المكان حتّى يعمّ الصّمت، وتنقطع جلبة السّكارى، ويختفي ضجيج الندماء، وتستحيل الحانة المصطخبة بالآخر الهارب من نفسه إلى نفسه، إلى حبس يُعتّف فيه بصره وتُنكس فيه هامته، وهو يشعر بأنّه متّهم بذنب ما، وباتول السّلطة هنا للبحث عنه للقبض عليه وسحبه مثل الحمل إلى قسم الشّرطة ليبدأ معه هناك سيناته الّتي لا يُمكن لكلّ جيات الأرض أن تُبرِّئه ممّا يكون قد حيك ضدّه.

وكم يُغبط باتول السّلطة مشهد الآخر وهو يشكّ في نفسه، فيقف عند كلّ لحظة من يومه يستنطقها، علّها تُخبره بما يكون قد جناه.

قد يشتهي باتول السّلطة في بعض المرّات أن يخلع عنه زيّه العسكريّ ويستبدله بلباس مدنيّ ليتوجّه نحو الطّريق الأكثر ازدحاما، "يتسمّر وسط الشّارع لازدراء السّيّارات المارّة فإن رآه السّائقون من أبناء المدينة توقّفوا بحذر، أمّا الأجانب إن تجرّؤوا على استعمال الكلاكسون أو إظهار امتعاضهم من هذا الأحمق المتسمّر في الطّريق ببذلته المدنيّة، قيدوا بعنف إلى محافظة الشّرطة، فمن توسّلوا أكثر من غيرهم، وتظاهروا بالنّدم، أطلق سراحهم، بعد دفع غرامة ماليّة بحجّة استعمال منبّهات رنّانة في غير محلّها، ومن احتجّ دفع الثّمن غاليا، من سحب رخصة القيادة إلى حبس المتمرّد في زنزانة المحافظة"[2].

وحتّى يتأكّد باتول السّلطة من أنّ الآخر واقع في شراكه التّخويفيّة، فإنّه يتمادى في استعمال سطوته ضدّه، فينتصب وسط الطّريق لا تنز منه حركة، ليبدأ من هناك استفزازه له، فإن كان هذا الآخر ممّن ألف نزقه فإنّه سيُجاريه ويكبح سيّارته ما أن يرمقها، وقد يتوقّف كلّيّة لا يتحرّك حتّى يأذن له، أمّا إذا كان هذا الآخر ممّن لا يعرفونه وعّن له أن يُطلق بوق سيّارته ليُبعده عن المسار، فإنّه يكون قد ورّط نفسه، وتكفي حينئذ إشارة واحدة من باتول السّلطة لأعوانه ليكون هذا الآخر في المخفر.

سعادة لا تُضاهى تلك الّتي تلقّ باتول السّلطة والآخر يتوسّل إليه ويتمسّح بأذياله ليعفو عنه، وكلّما كان التّذلّل كبيرا كان الصّفح ممكنا، ولكن بعد دفع غرامة مخالفة القانون الّذي يمنع إطلاق بوق السّيارة دونما داعٍ، وبقدر ما يكون رضاه عن الاخر الخنوع، بقدر ما يكون غضبه شنيعا من الآخر المتمرّد الّذي يُواجهه بخطئه، ويُجهر في وجهه بأنّه كان عليه

[1] طومبيزا، ص.10.
[2] طومبيزا، ص.11.

أن يُعرِّف بنفسه حتّى لا يقع اللّبس، فيُعدّ من المدنيّين أو المختلّين الّذين لا يُدركون ما يفعلون.

ولأنّ باتول السّلطة لم يتعودّ أن يُعلِّمه الآخر ما يجب وما لا يجب، فهو لن يكون متسامحا معه، وسيُنزل به العقوبة الّتي يراه يستحقّها، كأن يُجرّده من رخصة السّياقة أو كأن يقذف به خلف القضبان.

يستمرّ باتول السّلطة في التّضييق على الآخر، فيُحرِّم عليه الاقتراب من الحيّ الّذي يسكنه "لأنّه عليه آنذاك إثبات هويّته وأن يشرح بالتّفصيل الدّواعي الّتي دفعته إلى المرور من هذا الشّارع بالذّات دون غيره، ثمّ لماذا لم يكن في مقرّ عمله في هذه السّاعة، وربّما اتُّهم بالتّسكّع"[1].

يظهر باتول السّلطة، وقد سيّج منطقته، ووقف شخصيّا يحرسها بخطّة دفاهجوميّة، صنعها من كلّ المحظورات الّتي تُجرِّم الآخر إن هو دنا منها، بتوقيفه وإرغامه على استظهار كلّ أوراقه الثّبوتيّة، ثمّ باستنطاقه عن سبب كسره للقانون، وفي ذاك الوقت بالذّات، فإنّ كان صباحا، لماذا؟ أليس لديه عمل يُفترض أن يُداومه؟، وإن كان مساء، لماذا؟ ألا يملك بيتا يتوجّب عليه العودة إليه بدل التّسكّع في دروب المدينة وأحيائها؟ ويكون التّسكّع وفق هذا من أعظم الخيانات الّتي لا يغفرها باتول السّلطة، المؤمن بأنّ كلّ الجرائم إن هي إلاّ خاتمة للتّسكّع، ولذا تُصبح معاقبة الآخر منطقيّة ينسى بها حبّ التّطلّع الموصل إلى تجاوز الخطوط الحمراء.

هذه الخطوط الّتي يرفسها باتول السّلطة وهو يثّبت لنقمته على الآخر، النّاضحة مقتا، الّذي قد يتنامى ليُرادف الموت.

"قصد السّكان حنفيّة البلديّة ليُزوّدوا منها بالماء، فبلغ ذلك باتول فأمر رئيس البلديّة بغلق الحنفيّة ففعل، بالغد تجمهر عدد من السّكّان أمام الحنفيّة يريدون ماء، وهم ساخطون ناقمون ممدِّدون لرئيس البلديّة الّذي اتّصل بباتول فجاء وتصنّع استفسار الأمر"[2].

لا شيء يتحرّك إلاّ بأمر باتول السّلطة، وكما يُريد، وعندما يُريد، بعد أن تواطأت معه جميع السّلط وكلّ الصّلاحيّات فنفّذت تعليماته. فرئيس البلديّة لم يُصبح إلاّ اليد الباطشة باسمه، الّتي تمنع الماء عن الآخر، الّذي لا يستحقّ إلاّ أن يُعاني ويشقى، وإن هو تذمّر أو شكا، فلن تطلع الشّمس في يومه ذاك، لأنّ باتول السّلطة ارتضى له ذاك المصير.

دأب باتول السّلطة يظل على هذا النّحو إلى أن تبدأ موجات المهاجرين العائدين إلى الوطن تتوالى، حينها يبرز تربّصه بالآخر الوافد، فيعترض طريقه بمجرّد وصوله، ويُسخّر كلّ ملكاته لمخاتلته تضييقا وإزعاجا وتحقيرا، وعينه على الغنائم الّتي يجرّها خلفه، فلا يرفع عنه استفزازه إلاّ بعد أن يُمكِّنه من "علبة كبيرة من السّجائر الأمريكيّة أو أيّ بضاعة غربيّة"[3].

هكذا يفتكّ باتول السّلطة المحبوب إلى نفسه، سجائر راقية أمريكيّة الصّنع، بعد أن عاف السّيجارة المحلّيّة الكريهة، الّتي تُذكّره بأنّه يشترك ويتساوى مع الآخر، أنانيّة تُحقّق له لذّته في كلّ الأحوال، فإن لم يظفر بالسّجائر الفاخرة

[1] طومبيزا، ص.13.
[2] طومبيزا، ص.17.
[3] طومبيزا، ص.13.

فلا بأس أن يخطف شيئا آخر يكون موطنه البلاد الّتي خلف البحر، الّتي كثيرا ما حلم بأن يطأها، وتمنّى أن يستوطنها.

عُرْفُ باتول السّلطة لقّنه بأنّ زوجته هي أيضا الآخر، فانبرى لترويضها حتّى سلّمت واستسلمت، فراح يتحدّث عنها بكثير من فخر الانتصار. " طيعة إلى حدّ لا يخطر ببالها أبدا انتقادي أو معارضتي في رأي، فما الجدوى إذن من الحديث معها؟ كلّ ما أقوله لها تراه مقدّسا، فقد آمنت إيمانا راسخا لا يتحوّل بربّها وزوجها"[1].

بهذا يتحوّل الآخر إلى صورة حسب المواصفات الّتي تُريح باتول السّلطة، آخر خاضع له، لا يمتلك رأيا مخالفا لرأيه، ولا يقوى على التّفكير بغير منهجه، مصادر العقل والعواطف، منقاد دونما مقاومة، آخر يسترخص آدميّته لأجله ويتحاشى بكلّ السّبل أن يدخل معه في مناقشات قد تُولّد صراعات. يراه مقدسا فيؤمن به قولا وفعلا.

أمّا واسيني الأعرج[2] فإنّه يعرض لعلاقة السّلطة بالآخر في مساحة تكتظّ تصادمية يُحرّكها الجمركي المشبّه (بالتّمس)، صفة تجعله يقترب من ذاك الحيوان البارع في اصطياد فريسته.

الجمركي التّمس يُظهر احتياجه إلى "مقابل أو مثيل أو عدوّ"،[3] فيذهب يُجاهر بكراهيته للمجاهد صالح الزّوفري الّذي اشتغل في تهريب الأقمشة، فيُخضعه للتّفتيش كلّما لقيه بذريعة أنّه مشتبه فيه، وعندما لا يجد بحوزته ما يبحث عنه يتركه يمضي في سبيله والحرقة تُنطقه "الأيّام بيننا"[4]، وعيد يجعله لا يكلّ وهو يُكثّف حراسته على الآخر، ويصنع من مطاردته له همّه الأوحد الّذي يُرافقه نهاره ويُجاريه ليله، إلى أن ينجح في تلبيسه التّهمة الّتي تشفي غليله "اليوم نورّي لك خبثك يا وجه التّحس، هذا الكلب اليوم نكمّل معه ليعرف بأنّ النّاس ليسوا نياما، هذا ملفّك من وقت فرنسا، تعرف ماذا كتبوا عليه élément très dangereux، سجنت يا صالح، قتلت أنت بكلّ بساطة مجرم خطير"[5]. التّمس السّلطة، وهو يُبادر الآخر بلهجة التّهديد التّخويفي المتشظّي سبّا وشتما إنّما يروم إظهاره فاسدا وقذرا ومشؤوما، ليظهر هو بالمقابل ذاك الشّريف المتفاني في تأدية المهام الموكلة إليه، السّاهر على حماية الوطن وتأمين سلامته، هو الّذي لا يتهاون ولا يتلاعب بالمسؤولية الّتي حازها، وحتّى يُثبت فعل الخيانة على الآخر يعمد إلى نبش الملفّات القديمة الّتي تركها الاستعمار الفرنسي، فيتبنّى نظريّاتها الّتي تصف الآخر بالعنصر الخطير المتوجَّب البحث الجدّي عنه، حتّى العثور عليه.

التّمس السّلطة يعميه مقته للآخر فلا يُدرك في أيّ زمن هو يعيش، فيُحيي أحكاما سقطت بسقوط من أصدرها وأعلنها، ويحدث أن يعود التّمس السّلطة إلى الواقع فيفكّ الآخر على مضض وهو يُلقي على سمعه نفس صور العقاب "مازال ليام بيننا، المرّة القادمة نشويك"[6]. ما يُلاحظ على التّمس السّلطة أنّه حتّى عندما يتبيّن نفسه تُخطئ لا يُطاوعها على الاعتراف بذلك، فيظلّ قائما على غيّه يتربّص زلّة الآخر ليقبض عليه، ويستلذّ تحقيره، لا يُلجمه في ذلك لا يوم ولا وقت، يقتحم عليه حتّى بيته علّه يجده غارقا في هفوة ما، وعندما يخونه المراد يُطلق لسانه السّليط "الفنطازية

[1] طومبيزا، ص.166.
[2] نوار اللوز، الفضاء الحر، 2002.
[3] محمد شوقي الزين، الذات والآخر، منشورات ضفاف والاختلاف، 2012، ص.10.
[4] الرواية، ص.59.
[5] الرواية، ص.111-113-114.
[6] الرواية، ص.115.

والهزّية يا سي صالح، تحسّس لا شعوريا مسدّسه، فكرة مرّت برأسه لكن سرعان ما ألغاها"[1].

التّمس السّلطة مصرّ على استخدام فوقيّته للتّهكّم على الآخر الّذي يتكشّف أمامه صعلوكا يدّعى الفروسية بخرقه للقانون، وسارقا يدّعى القوّة بضربه لضوابط الأخلاق، وناقصا يُمثِّل الرّجولية وهو مفسد لكلّ ما حوله، وبقدر هذه السّخرية هو تعطّشه لإبادة الآخر، طنّت الفكرة في خاطره، طلقة واحدة من مسدّسه الّذي يتمنطقه وينتهي هذا الشّرّ اللّعين، الحركة سهلة فهو متعوِّد عليها، لقد أباد الآخر أكثر من مرّة، ولكنّه فجأة يؤجِّل الفعل وينصرف وهو يُسرّ ربّما سيُجسِّده في مقبل الأيّام.

وفي "نجمة السّاحل"[2] يظهر (العزّوني السّلطة) مدير مزارع التّسيير الذّاتي خائف على منصبه "يحسدونني في مسؤوليتي، أنا العزّوني رئيس الشّانطي، مُنحت لي هذه الثّقة عن جدارة لأنّني عدوّ الأعداء، أنا العزّوني منتخب من طرف اللّجنة، وعضو في اللّجنة، تسييرنا الذّاتي لا يخضع للنّقد الذّاتي، الذي يضحك عليّ أو يُحاول التّقليل من مسؤوليتي سأطرده نهائيا من المزرعة"[3].

كلّ ما يربط العزّوني السّلطة بالآخر هو حبل من الرّيبة متين، يدعوه لأن يكون متنبّها دائما حتّى يُحبط كلّ مكائده الّتي قد تسلبه النّعمة الّتي يرفل فيها ولا يقوى على مفارقتها بعد أن ألفها.

العزّوني السّلطة وهو يُناجي ذاته، تخرج آناه المتعملقة فيمتشقها مفتخرا بأنّه إنّما وصل إلى هذا المركز عن أهلية، بعد أن شهدت له وطنيّته وإئتمنه الجميع، أنّ مثل هذا "العُظام"[4] الّذي يتكرّر في الضّمير (أنا)، يجعل العزّوني السّلطة يتخيّل مصدِّقا أنّ المزرعة ملك له وبأنّ الآخر خادم عنده، ممنوع عليه المناقشة، وإن ارتكب ذلك فإنّ مصيره الطّرد المؤكّد.

ويبلغ العزّوني السّلطة أنّ الآخر يلوك سيرته ويلمزه بعدما شاع هيامه بفتاة صغيرة، يتيمة الآب، ودأبه على تحويل خيرات المزرعة نحو دارها، فصار كلّما أحسّ منه ذاك، حدّث نفسه "على أيّة حال أنا المتشوِّف عليهم في كلّ الحالات الّتي تحلّ بي، فعمّالي الجدد لا يعرفون الحكاية، بعد قليل سيعرفون أشياء كثيرة"[5].

لا يُمكن للعزّوني السّلطة بأن يسمح للآخر بأن يُشوِّه سمعته بالسّخرية والهمز والغمز، وربّما لأجل هذا يكون قد طرد عمّال المزرعة القدامى الّذين كانوا يعرفون حكايته وروّجوا لها، وعوّضهم بعمّال جدد يجهلون حقيقته، وكأنه فعلا من يملك المزرعة، ولعلّ لفظة (عمّالي) الّتي يستخدمها تُحيل على هذا الفهم، وبأنّ الآخر عبد عنده، متى أزعجه تخلّص منه. وعلى الرّغم من هذا يبقى العزّوني السّلطة متوجّسا من أن تصل أخباره للآخر الجديد، ولكنّ تسلّطه يُطمئنه ويُلقّنه بأنّ الحلّ بين يديه، وهو الطّرد.

وحتّى يؤكِّد العزّوني للآخر بأنّه هو السّلطة الآمرة النّاهية فإنّه يتعامل معه طوال الوقت بطرق غريبة وغير

---

[1] الرواية، ص.283.
[2] عبد العزيز بوشفيرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.
[3] الرواية، ص.52.
[4] مدحت عبد الرزاق الحجازي، معجم مصطلحات علم النفس، دار الكتب العالمية، بيروت، 2012، ص.70. ص.70. (البارانويا)
[5] الرواية، ص.49.

مفهومة.

"يُطلق تصفيرة حادّة، يأتي جاريا، تغوص قدماه في الأرض المستقيّة، يتطاير خلفه التّراب المبلّل، يصل، يبلغ ريقه، تتصلّب قدماه فوق جدرتين من الغرس، دين الله أنت... أنت... أنت، يُقيّد ثلاثة أسماء في دفتره"[1].

إنّ من يسمع تصفيرة العزّوني السّلطة الّتي تصمّ الآذان، ثمّ يرى منظره وهو راكض باتّجاه العمّال، يوقن أنّ شعور السّلطة أصبح يُحرّكه بطريقة مضحكة، هذا العدْو كلّه الّذي تنقطع فيه أنفاسه لأجل أن يُسجّل في كراسه الّذي لا يُفرّط فيه أبدا أسماء بعض العمّال الّذين ربّما رآهم يستريحون، ففهم بأنّهم لا يخشونه ولا يُقيمون له وزنا، أو ربّما يكون قد رآهم يتحدّثون فشكّ في أنّهم يتآمرون عليه، لأنّ الآخر في عرفه مرادف للخيانة، والاحتراس منه مفروض.

وحدث أن ضرب الوباء أحصنة المزرعة فمات عدد منها، ولم يُحرّك العزّوني السّلطة ساكنا بإزاء ما وقع، بل حتّى منظر الأحصنة المرميّة في العراء لم يُعرها بالا، فأشار عليه الآخر بأن يدفنها، فهبّ فيه وقد استشاط غضبه "أدفنها أنا؟ الشّهداء لم أدفنهم، رفاق لنا استشهدوا معنا فأوكلنا أمر دفنهم إلى ناس آخرين مثلك، واليوم أدفن الأحصنة، يا خسارة عليّ"[2].

إنّ مثل هذا الإقرار من العزّوني السّلطة، والّذي يُساوي فيه بين الشّهيد وحصان المزرعة الّذي فتك به المرض، أمر في غاية الخطورة، إذ يُحيلنا إلى أنّه حتّى في زمن حرب التّحرير كان المجاهد بالنّسبة إليه الآخر، ولذا عندما كان يستشهد يمتنع من الاقتراب منه أو لمسه، ويصير غير معنيّ بالمشاركة في مواراته التّراب، ولو كان الأمر كلّه بيد العزّوني السّلطة لظلّت أجساد الشّهداء الطّاهرة في العراء، تقتات منها الغربان والنّسور.

اعتراف شنيع كهذا يقول بأنّ العزّوني السّلطة لم يتبنّ القضيّة مطلقا، وأنّ تواجده في صفوف المجاهدين كان للاحتماء من تهديد يكون قد تعرّض له.

اعتراف بهذه العنجهية قد يُخفي جرائم يكون العزّوني السّلطة قد ارتكبها في حقّ الآخر، والّتي يُبقيها سرّا يضمن سلامته وديمومته في السّلطة المتشبّث بها.

كما يظهر في "زمن النّمرودّ"[3] الحاج الحرايري، وهو يجمع بين سلطتين، الأولى رئيس محافظة الحزب والثّانية مسؤول اتّحاد الفلاّحين.

(الحرايري السّلطة) لا يكفّ عن ذكر وتذكير الآخر بأنّه شارك في الثّورة وبأنّ عائلته قدّمت شهداء للوطن، وعندما يصله بأنّ هناك واحد من الآخر يُنافس صديقه على رئاسة قسمة الحزب، ينبري لمناصرة الصّديق، معرضا بالآخر "أعرفهم جميعا، بلّوطهم راش، وقراطيسهم ملح، اليوم فقط ظهرت لهم السّياسة، هه، وأين كانوا أمس وقبل

[1] الرواية، ص.54.
[2] الرواية، ص.84.
[3] الحبيب السايح، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

الأمس؟ الاستقلال بن الكلب. هه، الحزب أصبح دار فطيمة، اركب بغلك وادخل"[1].

الحرايري السّلطة يجهر بأنّ طموح الآخر في أنّه يصل إلى مثل هذا المنصب غير مشروع لأنّه لا يملك ما يؤهّله لذلك، وحتّى يُثبّت لرأيه يتساءل بلهجة الاستصغار، من اين لهذا الآخر أن يفهم السّياسة ويعي أبعادها؟ وهو الّذي جبُن على أن يكون في صفوف الثّورة، وبهذا تغدو المرجعية الثّورية في منطق الحرايري السّلطة هي الشّهادة الوحيدة الّتي يُفتح بها باب الفوز بهذه المناصب. من هنا يوقّع تفوّقه وهو "يتبنّى فكرا إقصائيا يُعلي شأن الذّات"[2]، ويسهب موضّحا ومستنكرا أنّ الحزب له حرمته وقدسيته، وليس ببيت فسق يلجه من كان وقت ما اتّفق وكيفما اتّفق، وفي غمرة ثورته، يشتم الاستقلال وينعته بابن الكلب لأنّه شجّع من هم في درجة الكلاب على أن يتسلّقوا للظّفر بأماكن ليست لهم.

الحرايري السّلطة يتوعّد الآخر بأنّه سيدخل حربا ضدّه إن هو لم يعد إلى رشده، ويُعلمه بأنّه يملك من الوسائل ما يجعل جرأته تفقد صلاحيتها.

الآخر عند الحرايري السّلطة ليس فقط ذاك الّذي يُنازعه الكرسي، وإنّما سيتوسّع مفهومه ليعني العربي "المخيّر في العربي كان يسرح الحلّوف، العرب ما يليق بهم سوى السّوط، العربي سوطه يخدم كِما البغل، وجوعه يتبع كمّا الكلب، حتّى الرّعيان والحمّاسة بالأمس، اليوم شبعوا كروشهم، الله يلعنك يا استقلال"[3].

لا يحسّ الحرايري السّلطة بأدنى خجل، وهو يُعيد استعمال بعض العبارات الجاهزة الّتي تنتمي إلى القاموس الاستعماري الّذي ظلّ يتعامل به مع الأهالي ليُشعرهم بمقدار "دونيتهم"[4].

الحرايري السّلطة الّذي يصف نفسه دائما بالمجاهد، يختفي في أعماقه أسف على مغادرة فرنسا البلاد، الّتي لم يكن يصلح الآخر في زمنها إلاّ للسّخرة المذلّة والشّغل القذر، ويتحدّث بتشفّي شامت عن رعي الآخر وتربيته لخنازير المستعمر ثمّ يومئ إلى أنّه يفهم حقيقة الآخر الّذي لا يُرجعه إلى حجمه إلاّ السّياط والتّجويع، الآخر العبد الّذي عندما شبع وارتاح، ظهر شغبه وعصيانه. ويشتدّ غضب الحرايري السّلطة فيدعو بزوال زمن الاستقلال ويدعو بالهلاك والعذاب على من جلبوه، فتنكشف لحظة الحقيقة، ومعها كذبه وادّعاؤه الجهاد الّذي لا يؤمن بمبادئه، ولا يتبنّى تطلّعاته ومنجزاته "الاشتراكية هذه ما جاءت للعرب، والعرب من خلقهم حار فيهم، لا حزب نظّمهم، ولا حكومة قدرت تحكمهم، الأرض عقرت مع عرب لوط، التقابة ما أوصى بها ربّي ولا النّبي ولا الجدود، التقابة هي الشّيوعية، عليهم اللّعنة ذرّية النّمرود، ما عليهم ربح، هذا داخل في هذا، النّساء والرّجال لا حياء ولا حشمة"[5].

يظهر الحرايري السّلطة وكأنّه وريث الاستعمار، فهو يطعن في الاختيار الاشتراكي بحجّة أنّ الآخر فوضوي ومتمرّد، وأنّ هذا اللّون من النّظام لا يصلح له، كما أنّه الحرايري السّلطة غير مقتنع بالإصلاح الزّراعي، ويتوقّع أن يُفشله الآخر الخارب المهدّم، الّذي لا يختلف عن قوم لوط الّذين كانوا لا يأتون إلاّ المنكر.

---

[1] الرواية، ص.27.
[2] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013، ص.23.
[3] الرواية، ص.69.
[4] نوربير سلامي، المعجم الموسوعي في علم النفس، ترجمة وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2001، ص.1667.
[5] الرواية، ص.32-70-72-74.

الحرايري السّلطة يزدري الشّباب الجامعي الّذي كان يخرج في حملات تطوّعية باتّجاه الأرياف ويتّهمهم بالفسق والرّذيلة، ويدعو عليهم بأن يُصيبهم نفس المصير الّذي انتهى إليه النّمرود، حتّى النّقابة في عرف الحرايري السّلطة ليست إلاّ كفرا وإلحادا، وكلّ من ينتمي إليها أو يتحدّث باسمها، وجب تطبيق الحدّ عليه وإنهائه، لأنّه الآخر الّذي يختزن له الحرايري السّلطة مقتا يتكلّم "أجمعكم وأبطحكم على الأرض مسلسلين، في طريق فوقهم بالدّبّابات آمر بالمرور، أضلاعهم اسمعها تتهرّس تنطحن"[1].

يتمنّى الحرايري السّلطة لو كان يملك تلك السّلطة الّتي تُخوّله القبض على الآخرين جميعهم، لكان جنّد أمهر قوّة وأمرها بأن تعتقلهم أينما تجدهم أو تُصادفهم، بأن تهجم عليهم حتّى في بيوتهم وتختطفهم، بأن تُقيّدهم بالحديد وترمي بهم في ظلمات الحبس، إلى أن يختار لهم هو الميتة المناسبة الّتي ستُجسّدها "عدوانيته الّتي تسامت حتّى تجاوزت البيولوجي كلّيا"[2]، ميتة مرعبة تُرغمهم على أن ينطرحوا بأغلالهم المثقلة حتّى تُلامس وجوههم الأرض لتجوز الدّبّابات على أجسادهم، تضغطها فتنسحق جماجمهم وعظامهم، حتّى لا يبدو لهم أثر بعد ذلك. ومن هنا يكون الحرايري السّلطة قد تماهى مع سلطة الاستعمار الّتي ما زال يذكر خوفه وذلّه من حقدها وشراستها.

وبهذا تكون الرّواية الجزائرية قد عرفت كيف تُظهر موضوع السّلطة والآخر، وتكشف عن الأوجه المتعدّدة للعلاقة بينهما، بشجاعة مقنعة، بعيدة عن الشّطط.

[1] الرواية، ص.27.
[2] مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط9، 2005، ص.185.

قائمة المصادر والمراجع

1-الحبيب السايح زمن النمرود، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
2-رشيد ميموني، طومبيزا لافوميك، 1989 (لقد وزع هذا العمل على أكثر من مترجم ولكن عند ظهور الطبعة لم تشر لأي منهم)
3-عبد العزيز بوشفيرات نجمة الساحل المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.
4-عبد الله محمد العيسوي، موسوعة علم النفس الحديث، علم نفس الشواذ والصحة النفسية، ج5، دار راتب الجامعية، بيروت، 2001-2002.
5-ماجدة حمود، إشكالية الآنا والآخر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013.
6-محمد شوقي الزين، الذات والآخر، منشورات ضفاف والاختلاف، 2012.
7-مدحت عبد الرزاق الحجازي، معجم مصطلحات علم النفس، دار الكتب العالمية، بيروت، 2012.
8-مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط9، 2005.
9-نوربير سلامي، المعجم الموسوعي في علم النفس، ترجمة وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2001.
10-واسيني الاعرج نوار اللوز، الفضاء الحر، 2002.
11- Roland Barthes, Essais critiques, Editions du Seuil, 1964.
12- Tzvetan Todorov, Théorie de la littérature, Editions du Seuil, 1965.
13- Water Allen, The English novel auglettere, Pinguin, 1991.